بابلو نيرودا

عشرون قصيدة حب وأغنية يائسة



ترجمة عن الإسبانية

الهيئة العامة السورية للكتاب دار البعث

بابلو نيرودا

عشرون قصيدة حب
وأغنيةٌ يائسة

ترجمها عن الإسبانية
مروان حداد

الكتاب الشهري السادس والعشرون- ٢٠١٠

العنوان الأصلي

20 POEMAS DE AMOR
Y UNA CANCION DESESPERADA

PABLO NERUDA

الإهداء

إلى صفاء

مروان

تقديم

في قرية parral بتشيلي وُلد "نيفتالي ريّيس باسوالتو" في ١٢ تموز عام ١٩٠٤، قبل شهر واحد من وفاة والدته. ثم انتقل إلى بلدة تيموكو مع والده الذي عمل سائق قطار وتزوج مرة أخرى.

في هذه البلدة أنهى دراسته الثانوية وبدأ ينشر أولى محاولاته الأدبية في إحدى صحفها باسمه الحقيقي وهو في الثالثة عشرة، وكانت البداية بمقالة حملت عنوان "حماسة ومثابرة"، قبل أن ينشر في العام التالي قصيدته الأولى "عيناي"، في إحدى مجلات العاصمة "سانتياغو"؛ أتبعها بثلاث قصائد أخرى في العام نفسه وفي المجلة نفسها؛ هذا إلى جانب قصائد أخرى نُشرت له في عدد من المجلات الطلابية الأدبية.

في العام ١٩١٩، بدأ ينشر تحت عدة أسماء مستعارة، قبل أن يتخذ لنفسه، بصورة نهائية، اسماً عُرف واشتُهر به "بابلو نيرودا" بسبب إعجابه الكبير بالشاعر والكاتب القصصي التشيكي "جان نيرودا" الذي عاش في براغ بين عامي ١٨٣٤ — ١٨٩١.

عام ١٩٢٠ حصل على الجائزة الأولى من لجنة مهرجان الربيع في بلدة تيموكو، واختير رئيساً للنادي الأدبي في هذه البلدة، كما انتُخب نائباً للأمين العام لجمعية الطلبة في تلك المنطقة. وفي العام التالي انتقل إلى سانتياغو وانتسب إلى معهد لإعداد مدرّسي اللغة الفرنسية، وحصل في العام نفسه على الجائزة الأولى في

مسابقة أعدّها اتحاد طلبة تشيلي، عن قصيدة حملت عنوان "أغنية المهرجان". وفي عدد خاص من مجلة "الأزمان" عن شعر تشيلي الجديد، وُصف "بابلو نيرودا" بشاعر المستقبل، وبأفضل من يمثّل هذا الشعر الجديد.

ظهرت مجموعته الشعرية الأولى "الشفقيات" عام ١٩٢٣، وفي العام التالي نشر مجموعته الثانية "عشرون قصيدة حب وأغنيةٌ يائسة"؛ وفي العام ١٩٢٥، ترأّس تحرير إحدى المجلات الأدبية وأسهم في تحرير مجلات أدبية عديدة أخرى. عام ١٩٢٦ نشر أول كتاب له في النثر الفني بعنوان "خواتم" بالمشاركة مع أديب آخر من مواطنيه هو "توماس لاغو"، ثم نشر رواية بعنوان "القاطن وأمله". كما بدأ في العام ذاته بترجمة أعمالٍ لعدد من الكتّاب والشعراء الفرنسيين.

عام ١٩٢٧ بدأ مرحلة جديدة من حياته، فعمل قنصلاً فخرياً في "رانغون"، ثم في "كولومبو" ثم "باتابيا" بجزيرة جاوه الأندونيسية، التي تزوج فيها من "ماريا" ولم يدم زواجه منها كثيراً بعد أن أنجب منها ابنة لم تعش سوى ثماني سنوات، أمضتها مع مرض شلل الأطفال الذي لازمها منذ ولادتها، ولم يُرزق من ثم بغيرها.

نشر عام ١٩٣٣ مجموعته الشعرية "حامل المقلاع المتحمس"، ثم الجزء الأول من ديوانه "إقامة في الأرض"، أتبعه فيما بعد بجزء ثان. كما أصبح في ذلك العام قنصلاً عاماً لبلاده في العاصمة الأرجنتينية "بوينوس آيريس" حيث التقى شاعر إسبانيا العظيم "فيديريكو غارثيّا لوركا" خلال إحدى جولاته الأدبية، وتوطدت

بينهما صداقة عميقة، ازدادت رسوخاً مع انتقال نيرودا إلى برشلونة عام ١٩٣٤ لتسلّم عمله كقنصل فيها، ثم إلى مدريد في العام التالي حين أصبح قنصلاً عاماً لتشيلي في إسبانيا، وظهر العدد الأول من مجلة "حصان أخضر من أجل الشعر" التي ترأَس تحريرها. لكن الحرب الأهلية الإسبانية نشبت عام ١٩٣٦ وقُتل "لوركا" على أيدي أعوان النظام الفاشي بقيادة الجنرال فرانكو الذي كان في بدايات استيلائه على السلطة؛ وتحدث "نيرودا" عن هذه الجريمة الكبرى التي أودت، مع لوركا، بمئات المثقفين والمبدعين؛ في مذكراته "أعترف بأنّي قد عشت": "..الحرب الإسبانية غيَّرت في شعري، وقد بدأتْ بالنسبة لي باختفاء شاعر؛ وأيُّ شاعر!". وسرعان ما عُزل نيرودا من منصبه، وسافر إلى باريس وأصدر مجلة "شعراء العالم يدافعون عن الشعب الإسباني".

عاد إلى تشيلي عام ١٩٣٧، وأسّس ورأس "حلف مثقفي تشيلي من أجل الدفاع عن الثقافة"، ثم نشر ديوانه "إسبانيا في القلب"، كما رأس تحرير مجلة "فجر تشيلي"؛ وتزوج للمرة الثانية من رسامة أرجنتينية كان قد التقاها في مدريد تدعى "ديليا".

عام ١٩٤٥ انتُخب نائباً في البرلمان، وانتسب إلى الحزب الشيوعي. ثم صدر أمر باعتقاله، بعد عزله من مجلس النواب، وفر هارباً من تشيلي عبر الجبال؛ وظهر في الاتحاد السوفييتي بحضوره المؤتمر العالمي الأول لأنصار السلام، وعُيّن عضواً في المجلس العالمي

للسلام. وفي العام التالي مُنح جائزة السلام العالمي خلال المؤتمر الثاني لأنصار السلام في وارسو.

من أهم دواوينه خلال عقد الخمسينات، "النشيد العام"، و"أشعار القبطان" و"أناشيد أوّلية" و"الأعناب والريح" و"أناشيد أوّلية جديدة" و"كتاب ثالث للأناشيد" و"إبحارات وعودات" و"مائة قصيدة حب". وفي منتصف هذا العقد تزوج للمرة الثالثة والأخيرة من "ماتيلده" بعد انفصاله عن زوجته الثانية. وكانت ماتيلده هي الزوجة التي أحبها فعلاً وتغنّى بها في الكثير من قصائده. كما جرى اختياره رئيساً لجمعية الكتاب في تشيلي.

وفي الستينات نشر دواوين عديدة، من بينها "أغنية مفخرة" و"أحجار تشيلي" و"أناشيد شعائرية" و"صلاحيات كاملة" و"أغنية للبحارة" و"أيادي النهار" و"نهاية العالم"، وديوانه عن الطيور "فن العصافير"؛ ومسرحية بعنوان "بريق وموت" وترجمة لمسرحية شيكسبير "روميو وجولييت"؛ إضافة إلى كتابه الكبير ذي الأجزاء الخمسة "ذكرى الجزيرة السوداء". كما كتب بالاشتراك مع الكاتب الغواتيمالي الشهير "ميغيل آنخل آستورياس" مجموعة مقالات نُشرت في كتاب تحت عنوان "ونحن نأكل في هنغاريا".

عام ١٩٧٠ نشر ديوانين هما "أحجار السماء" و"السيف المتّقد"، وعُيّن سفيراً لبلاده في باريس. وفي العام التالي ١٩٧١ نال جائزة نوبل للآداب، ونشر ديواناً جديداً "ما زال". أما آخر دواوينه فكان عام ١٩٧٢ بعنوان "جغرافيا باطلة"، قبل عام واحد من وفاته

بمرض السرطان، بعد أن شهد الانقلاب العسكري الذي أطاح بالحكم الديمقراطي لـ "سالفادور آيّينده"، وكان أحد دعائمه.

يعتبر بابلو نيرودا واحداً من أكبر شعراء اللغة الإسبانية، وقد مارست بعض أعماله تأثيراً هاماً، وما زال، في مسار تطور اللغة الشعرية، ("إقامة في الأرض" على سبيل المثال). وربما أن قصائد أخرى قد أحدثت تأثيرات أكثر متعة، مثل "النشيد العام" أو "ذكرى الجزيرة السوداء"، أو استُقبلت برضا نقدي أكبر، مثل أناشيده الأولية، لكن ما حظي دائماً بأفضل قبول وحرارة جماهيريين هو بلا شك مجموعته هذه "عشرون قصيدة حب وأغنيةٌ يائسة".

م.ح.

القصائد العشرون

١ ـ جسد امرأة

جسد امرأة، ربىً بيض، فخذان أبيضان،
تشبهين العالَم وأنت مستسلمة.
وجسدي الريفي البَدائي يحَرثك
كي يثبَ الابنُ من أعماق الأرض.

كنتُ وحيداً مثل نفق. تجنّبَتْني العصافير،
واخترقَني الليل باجتياحه الطاغي.
وكَيْ أنجو بنفسي صغت منك سلاحاً،
سهماً لقوسي، حجراً لمقلاعي.

لكنْ تهبط ساعة الانتقام، وأحبك.
جسدٌ من فراء، من زَبَد، من حليب شَرِه ومكتَنز.
آه يا كؤوسَ الصدر! يا عيون الغيابِ!
آه يا ورود العانة! يا صوتك المتمَهّل الحزين!
جسدُ أُنثاي، أتشبّث بنُعماك.

يا عطشي، يا اشتياقاً لا ينتهي، يا طريقيَ الحائر!
دروبُ مياهٍ مظلمة، حيث العطش الأبدي يستمر،
والعناء يستمر، والألم لا نهاية له.

٢ ـ يلُفّكِ الضوء ..

يلفّك الضوء في شعلته المميتة.
ذاهلة، شاحبة، منهَكة، هكذا تبدين
أمام دوّامات الشفق العتيقة
وهي تطوف حولك.

صامتةٌ، صديقتي،
وحيدةٌ في عزلة ساعة الموت
وملأى بحَيَوات النار،
وارثةٌ للنهار المحطَّم.

من الشمس يسقط عنقودٌ في ثوبك القاتم.
من الليل تنمو الجذور الهائلة
فجأةً من روحك،
وتعود لتنطلقَ الأشياء التي تختبئ فيك،
وكأنّ شعباً واهناً وحزيناً
وُلد لتوِّه منك ينهل غذاءه.
أيتها المملوكة العظيمة والخصبة والساحرة
من الدورة التي تتوالى بالأسود والذهبي:
أقدمي وأنجزي، منتصبةً، مخلوقاً تضجُّ فيه الحياةُ
إلى المدى الذي تهلك فيه أزهاره، ويمتلئ بالحزن.

٣ ـ آه يا اتساعَ غابات الصنوبر . .

آه يا اتساعَ غابات الصنوبر،
وشوشاتُ موجات تتكسّر،
أضواءٌ كسلى، جَرَسٌ وحيد،
شفقٌ يسقط في عينيك،
أيتها اللعبة،
محارةٌ، تغنّي فيكِ الأرض!

فيك تُغنّي الأنهار حيث تهرب روحي
مثلما ترغبين وحيث تريدين.
أريني طريقيَ في قوس أمَلك
لأُطلق في هذيانٍ سربَ سهامي.
أرى حوليَ خصرَكَ الضبابي،
وصمتُك يحاصر أوَقاتيَ المتعَبة،
وعندك، بين ذراعيك
ترتاح قَبلاتيَ ويعشش اشتياقيَ النّدي.

آه يا صوتك الغامض الذي يخضّبه الحب
ويردد صداه في المساء، ويتلاشى!
هكذا في ساعات عميقة فوق الحقول
رأيت السنابل يطّويها فمُ الريح.

٤ ـ إنه الصباح الذي تملؤه العاصفة

إنه الصباح الذي تملؤه العاصفة
في قلب الصيف.

مثل مناديل الوداع البيض تسافر الغيوم،
وتمضي بها الريح مع أيديها المسافرة.

قلوبٌ للريح لا تنتهي
تخفق فوق صمتنا العاشق.

تعصف بين الأشجار، شجيّةً إلهيّة،
مثل لغة ملأى بالحروب وبالغناء.
ريحٌ تخطف الأوراق المتساقطة
وتحرف السهام المتربّصة بالعصافير.
ريحٌ تجرفها بموجة بلا زَبَد
مستسلمةً، وألسنةُ نارٍ تتقصَّف.
تتمزَّق أسفار قُبَلها وتغرق
صريعةً عند بوّابة ريح الصيف.

٥ ـ لِكيْ تسمعيني . .

لكيْ تسمعيني
ترقُّ كلماتي
مثل آثار طيور النورس
على رمال الشطآن.

قلادةٌ، جلجلٌ سكران
ليديك الناعمتين كحبّات العنب.

وأرى كلماتيَ بعيدةً.
وأبعدُ منها كلماتُك.
تتسلّق كاللبلاب فوق آلاميَ القديمة.
تتسلّق فوق الجدران الرطبة.
وأنتِ الملوم في هذه اللعبة الدامية.

إنها تفرّ من ملجئيَ المظلم.
وأنتِ تملئين كلَّ شيء، تملئين كلَّ شيء.

قَبْلك استوطنتْ وحدَتيَ التي تحتلّينها،
وتعوَّدَت، أكثرَ منك، أحزاني.

الآن أريدها أن تقولَ ما أحبُ أنْ أقولَ لكِ
كي تسمعيني كما أحبُ أن تسمعيني.

رياح الكآبة ما تزال تجرفها.
أعاصير الأحلام ما تزال تنهال عليها.
تسمعين أصواتاً أخرى في صوتيَ المتألم.
بكاء أفواه قديمة، دماء تضرّعات قديمة.
أحبّيني، يا رفيقة. لا تتخلّيْ عني. اتبعيني.
اتبعيني، يا رفيقة، في هذه الموجة من الكآبة.

لكنَّ كلماتيَ سيخضّبها حُبّك.
أنت التي تحتلّين كلَّ شيء، تحتلّين كلَّ شيء.
سأصنع منها جميعاً قلادةً لانهاية لها
ليديكِ البيضاوين، الناعمتين مثل حبّات العنب.

٦ ـ أتذكّركِ مثلما كنتِ . .

أتذكّرك مثلما كنت في الخريف الفائت.
قبعةٌ رمَاديةٌ وقلبٌ هادئ.
في عينيك تتّقدُ ألسنة الشفق.
وتسقط الأوراق في مياه روحكِ.

متشبّثة بذراعيّ مثل نبتة متسلّقة،
تلملمُ أوراقُها صوتَك المتمهّل والهادئ.
لهبٌ من ذهولٍ تحترق فيه ذاتي.
سنبلةٌ برّيةٌ عذبةٌ زرقاء تعانقُ روحي.

أحسّ بعينيك تسافران والخريف بعيد؛
قبّعةٌ رماديةٌ، صوتُ عصفورٍ وقلبٌ مثل بيت
تهاجر إليه أشواقيَ العميقةُ
وتسقط قبلاتيَ الفرحةُ مثل جمرات.
سماءٌ تغمرُ مركَباً. حقولٌ تنبسط تحت الرُبى.
ذكراك من نورٍ، من دخان، من غديرٍ هادئ!
هناك، أبعدُ من عينيك، تحترق الأمسيات.
أوراقٌ جافّةٌ خريفيةٌ تَحوم في روحكِ.

٧ ـ مُطرِقاً في الأمسيات ..

مُطرِقاً في الأمسيات ألقي بشباكيَ الحزينة
إلى عينيكِ المحيطيّتين.

هناك تُطبِق وحدتي ويَستعرُ لهيبها
وتلوّح بذراعيها مثل غريق.

أُطلق إشاراتٍ حمراً فوق عينيكِ الغائبتين
اللتين تفوحان مثل البحر على ضفة منارة.

وتبقين في الظلمة، أيتها الأنثى البعيدة،
ياأُنثايَ،
ويُطلّ من نظرتكِ شاطئُ الذُعر.

مُطرِقاً في الأمسيات ألقي بشباكيَ الحزينة
إلى هذا البحر حيث ترتعش عيناكِ المحيطيّتان.

عصافير المساء تنقر أولى النجوم

المتلألئةِ مثل روحي عندما أحبك.

يُطلّ الليل على فرَسه المظلمة
ناثراً سنابل زرقاً فوق الحقول.

٨ ـ أيتها النحلة البيضاء

أيتها النحلة البيضاء التي تحومين داخل روحي،
سكرى بالعسل، وتدورين متمهّلةً كالتفاف الدخان.

أنا اليائسُ، الكلمةُ بلا أصداء،
الذي فقد كل شيء، وكان لديه كل شيء.

أيتها المرساةُ الأخيرة، يَصرُ في أعماقك اشتياقيَ الأخير،
أنت الوردة الأخيرة في أرضيَ القاحلة.

آه أيتها الصامتة!
أغمضي عينيكِ العميقتين. هناك يرفرف الليل بجناحيه.
آه عَرّي جسدكَ الشبيهَ بتمثالٍ خائف.
لك عينان عميقَتان ينسكبُ فيهما الليل.
ذراعان نَضِرتان من زهرٍ، وحضنٌ من ورد.

ثدياك صدَفتان بيضاوان.
وفراشَةٌ من ظلّ جاءت لتنام على صدرك.

آه أيتها الصامتة!

هنا الوحدة حيث تغيبين.
إنها تمطرُ. رياح البحر تقتنص طيور النورس التائهة.
حافيةً تمشي المياه عبر الدروب الرطبة.
وشجرةٌ تُطلقُ أوراقُها صرخاتِ أنين.
أيتها النحلةُ البيضاء، الغائبة،
وما تزالين تحومين داخل روحي.
وتستمرّين مع الأيام، رقيقةً وصامتة.

آه أيتها الصامتة!

٩ ـ ثملٌ من ضَوْع الصنوبر

ثملٌ من ضَوْع الصنوبر والقبلات الطويلة،
يومٌ صيفيٌّ، زَورق الورود مضى
نحو موت النهار الناحل،
وسط اصطخاب البحر.

شاحباً ومشدودَ الوثاق إلى مياهيَ الشرهة
أعبُر الرائحة اللاذعة للجوِّ العاري،
وما زلتُ أرتدي الرمادي والأصوات المُرّة،
وذروةُ موجة حزينة مهجورة الزَّبَد.

أُبحر مع موجتيَ الوحيدة، تملؤني قسوةُ الشغَف،
قمرٌ، شمسٌ، حَرٌّ وبردٌ، تأتي كلُّها فجأة،
وأنا أنامُ بين شعاب الجُزُر السعيدة
البيضاءِ والحلوَة مثل أردافٍ نضِرةَ.

في الليلة النّديّة يرتعش ردائي المُترعُ بالقُبل
حاملاً الشحّنات بجنون،
يتناثر أحلاَماً وورداً سكرى

تضج في أعماقي.

وسط الأمواج، في المياه البعيدة،
يستسلم جسدُكِ الجميل بين ذراعيَّ
مثل سمكة التصقَت بروحي إلى الأبد
وأنا أُسرع وأتمهّل تحت زُرقة السماء.

١٠ ـ لقد فقدنا حتّى هذا الشفق..

لقد فقدنا حتّى هذا الشفق.
لم يَرَنا أحد هذا المساء متشابكَيِ اليدين
عندما كانت الليلة الزرقاء تهبط فوق العالم.

رأيت من نافذتي
مهرجان الغروب فوق الربى البعيدة.

ومثل قطعة نقود
تتّقد شذْرَةٌ من الشمس بين يديّ.

كنتُ أتذكّرك وروحي تضيق
بهذا الحزن الذي تعرفين.
أين كنت آنئذ؟
بين أيّ أَناسٍ؟
أيّة كلمات كنت تقولين؟
لماذا يداهمُني كل هذا الحب
عندما أشعر بالحزن، وأشعرُ بكِ بعيدة؟

سقط الكتاب الذي كان يُفتح وقت الشفق،
ومثل كلب جريح التفَّ ردائي عند قدميّ.

دائماً، دائماً تبتعدين في الأمسيات
إلى حيث يمضي الشفق وهو يمحو التماثيل.

١١ ـ كأنَّه خارج السماء..

كأنه خارج السماء
يرسو الهلال بين جبلين.
ليلةٌ تطوف تائهة، تحفرُ في العيون.
تُرى كم نجمةٍ تقطَّعتْ في الغدير.

تزرعُ الحزن بين حاجبيَّ، تفرُّ.
مصهرٌ لمعادن زرقٍ ، ليالي الصراع الصامت،
قلبي يطوف مثل طائرٍ مجنون.

صبيّة جاءت من بعيد، جيء بها من بعيد،
تُبرق نظراتُها تحت السماء.
أنينٌ، عاصفةٌ، دوّامةُ غضب،
تَعبُر فوق قلبي، ولا تتوقّف.
رياح القبور تحمل جذورك الغافية، تفتّتها، تنثرها .
تقتلع الأشجار الهائلة على الجانب الآخر منها .
لكنْ أنت، أيتها الصبيّة الصافية،
يا سؤالاً من دخان، يا سنبلة،
كنتِ التي تشكّلين الريح بأوراقٍ مضيئة.

خلف الجبال المسائية، زنابق حريق بيض،
آه لا أستطيع أن أقول شيئاً!
كنت مزيجاً من كلّ الأشياء.
اشتَياقٌ مزّق صدري.
إنها ساعة البحث عن طريقٍ آخر،
حيث هي لم تبتسم.
عاصفةٌ دفنت الأجراس، أنواءٌ هائجةٌ صاخبة،
لماذا إيلامُها الآن، لماذا إغراقُها في الحزن.

آه أيّها المسيرُ في الطريق الذي يبتعد عن كلّ شيء،
عن الحزن، والموت، والشتاء،
مع عينيها المشرقتَين وسْط الندى.

١٢ ـ من أجل قلبي ..

من أجل قلبي يكفي صدرُكِ،
من أجل حريتكِ تكفي أجنحتي.
من فمي سيصلُ حتى السماء
ما كان غافياً فوق روحكِ.

فيكِ أملُ كلِّ يوم.
تأتينَ مثل الندى فوق تويجاتِ الزهر.
تُغرقين الأفق عند غيابكِ.
هاربةً دَوْماً كالموجة.

كنتِ تُغنّين في الرياح
مثلَ شجر الصنوبر
ومثل السواري.
مثلها أنت ساميةٌ وصامتة.
وفجأةً توقعين الحزن،
مثل السفرِ.
مضيافةٌ مثل درب قديم.

تملؤك أصواتُ حنينٍ وأصداؤه.
وعصافيرُ كانت تنامُ في روحك
أيقظتُها، وكم فرّتْ وهاجرتْ.

١٣ - مضيتُ واسماً بصلبانٍ من نار.

مضيتُ واسماً بصلبانٍ من نار
أطلَسَ جسدَك الأبيض.
كان فمي عنكبوتاً عَبَره مختبئاً،
فيكِ، خلفكِ، خائفاً، ظمآن.

حكاياتٌ أرويها لك على ضفّة الشفق،
أيتها اللعبةُ الحزينةَُ والحلوة، كي لا أدَعَكِ حزينة.
طائرُ التّم، شجرةٌ، شيءٌ بعيدٌ وفرحِ.
أيام العنب، أيام النضج والثمر.

هو مرفأٌ فيه عشتُ وفيه أحببتك.
الوحدة يخترقها الحلم والصمت.
وأنا محاصَرٌ بين البحر والحزن.
صامتٌ، هاذٍ، بين ربّانَيّ زورقَين ساكنَيْن.

بين الشفتين والصوت، شيءٌ يُحتَضر.
شيءٌ له جناحا طير، شيءٌ من كآبة ومن نسيان.
هكذا مثل شِباكٍ يتسرَّب منها الماء.

يا لعبتي، لم يبْقَ غيرُ قطراتٍ ترتعش.
لكنَّ شيئاً يغنّي بين هذه الكلماتِ الهاربة.
شيءٌ يغنّي، شيءٌ يصعد حتى فميَ الشرِه.
أيتها القدرة على استقبالكِ بجميع كلماتِ الفرح.
أُغنّي، أحترق، أهرب،
مثل بُرجِ أجراسٍ بين يديْ مجنون.
يا حنانيَ الحزين، ماذا تفعلين فجأةً؟
عندما بلغتُ اللحظة الأكثر جرأةً وبرودة
انغلق قلبي مثل زهرةٍ مسائية.

١٤ ـ تلعبين كلَّ الأيام . .

تلعبين كلَّ الأيام بأضواء الكون.
زائرةٌ رقيقة، تحملكُ الزهرة والماء.
أنت أكثر من هذا الرأس الأبيض الصغير
الذي أضمُّه بين يديّ كل يومٍ مثل عنقود.

لا تشبهين أحداً منذ أحببتك.
دعيني أمدِّدُك بين أكاليل أزهارٍ صفر.
من الذي يكتب اسمك بأحرفٍ من دخانٍ
بين نجوم الجنوب؟
آه دعيني أتذكّر كيف كنت آنذاك،
عندما لم تكوني بعدُ قد وُجدت.
فجأةً تعوي الرياح وتضرب نافذتي المغلقة.
السماء شبكةٌ تغصّ بأسماكٍ قاتمة.
هنا تُطلُّ كلُّ الرياح، كلُّها.
وتتعرّى الأمطار.

مرَّت العصافير هاربة.
الريح. الريح.

وأنا لا أستطيع أنْ أصارع غير البشر.
الأنواءُ تعصف بالأوراق القاتمة،
وتطلقُ كلَّ الزوارق الراسية في السماء.

أنت هنا. آه أنت لا تهربين.
ستَجيبينني حتّى الصرخة الأخيرة.
التصقي بي كما لو كنت خائفة.
ظلٌ غريب، طاف، ذات مرّة، في عينيكِ.

الآن، الآن أيضاً، يا صغيرة، تأتين لي بزهر العسل،
وثدياك معطَّران.
بينما الريحُ الحزينة تعدو وتقتلُ الفراشات
أُحبك، وفرحي يغمر فمك الذي يشبه البرقوق.
كم ستَمضين في الألم كي تتعوديني،
وتتعودي روحيَ الوحيدةَ والبدائية،
وتتعودي اسمي الذي يُبعد الجميع.
كم رأينا احتراق الشُهُب وهي تقبِّل أعيننا
والشفق يتماوج مثل مراوحِ اليد فوق رأسينا.
كلماتي تمطر فوقك لتُداعبك.
أحببت دائماً جسدَك الذي يشبه اللؤلؤَ المُشبعَ بالشمس.
حتى ظننتكِ تملكين الكون.

سأجلب لك من الجبال زهوراً فرحة، و"كوبيويس"[1]،
وحبّاتِ بندقٍ، وسلالاً ريفيةً مُترعَة بالقُبَل.

أحبُّ أن أصوغ معكِ
ما يصوغه الربيع معَ شجرات الكرز.

[1] Copihues الزهرة الأكثر شهرة في تشيلي، ويُطلق عليها اسم "زهرة تشيلي الوطنية". تشبه زهرة الرمان، لكنها أكبر قليلاً، ويوجد منها ألوانٌ عدّة: الأبيض والأصفر والبرتقالي، والأحمر بتدرجاته المختلفة. حمل اسمَها العديدُ من الشوارع والنوادي والفنادق، في تشيلي، وفي عدد من دول أمريكا الجنوبية. ـ المترجم ـ.

١٥ ـ تعجبينني حين تصمتين . .

تعجبينني حين تصمتين لأنك تكونين كالغائبة.
وتَسمعينني من بعيد، وصوتي لا يلامسك.
تبدو عيناك مرتبكتين
ويبدو أنَّ قبلةً ستطبقُ على فمك.

مثل كل ما يمتلئ بروحي،
تُشرقين، ممتلئةً بروحي.
وتشبهين روحي، يا فراشة الحلم.
وتشبهين كلمةَ كآبة.

تعجبينني حين تصمتين وأنت كالبعيدة.
وأنت كأنك تئنّين، فراشة ترفّ.
وتَسمَعينني من بعيد، وصوتي لا يصل إليكِ.
دعيني أصمت مع صمتك.

دَعيني أكلّمك أيضاً مع صمتك
الصافي مثل مصباح، البسيط مثل خاتم.
أنت مثلُ الليل، الصامتِ والمرصّعِ بالنجوم.

صمتك صمتُ نجمة، بهذا البعد وهذه البساطة.

تعجبينني حين تصمتين لأنك تكونين كالغائبة.
بعيدة ومتألمة كما لو أنك قد مُتِّ.
كلمةٌ واحدةٌ حينئذ، ابتسامةٌ واحدةٌ، تكفيان.
وأنا أفرحُ، أفرحُ بأنَّ هذا غيرُ صحيح.

١٦ - في سمائي عند الشفق ...

(هذه القصيدة هي تأويلٌ
للقصيدة /٣٠/ من"الحدائقي"
لـ "رابيندرانات طاغور")

في سمائي عند الشفق أنت مثل غيمة
ولونُك وشكلُك هما مثلما أَحبُهما .
أنت لي، أنت لي، أيتها المرأة ذات الشفتين العذبتين
وفي حياتك تعيش أحلاميَ التي لا تنتهي.

مصباحُ روحي وردَّ قدميك،
نبيذي الحامضُ يَعذُب بينَ شفتيك،
آه يا من تحصدين أغنيتي المسائيةَ،
كيف تَشعر بكِ أحلامي الغارقةُ في الوحدة!

أنت لي، أنت لي، سأصرخ مع نسيم المساء،
والريح تجرف صوتيَ الأرمل.
قناصةُ أعماق عينيّ،
ما تسرقين يُغَرِق في غديره نظراتكِ المسائية.

أنت سجينةٌ في شباك موسيقايَ، يا حبيبتي،
وشباكُ موسيقايَ متّسعةٌ مثل السماء.
روحي وُلدتْ على ضفّة عينيك الحزينتين.
وفي عينيك الحزينتين يبدأ وطَن الحلم.

١٧ ـ متفكّراً، أصطاد ظلالاً . .

متفكّراً، أصطاد ظلالاً في وحدتيَ العميقة.
أنت أيضاً بعيدة، آه، أكثر بعداً من أي إنسان آخَر.
متفكّراً، أُطلق عصافيرَ، أبدّد صوَراً،
أدفن مصابيحَ.
بُرجُ أجراسٍ من ضباب، ما أبعده، هناكَ فوق!
أخنقُ النحيبَ، أطحنُ آمالاً قاتمة،
طحّانٌ صامت،
يدهمكِ الليل، بعيداً عن المدينة.

حضورُك لا يعنيني، غريبٌ عنّي.
أُفكّر، أسَيرُ طويلاً، حياتيَ قبلك.
حياتيَ قبل لا أحد، حياتيَ المُرّةَ.
الصرخة أمام البحر، بين الصخور،
أركضُ حرّاً، مجنوناً، وسط رذاذ البحر.
الغضبُ الحزين، الصرخة، عزلة البحر.
جَموحٌ، عنيفٌ، أُطاول السماء.
أنت، يا امرأة، ماذا كنت هناك، أيُ خطّ، أيُ أثرٍ
منَ هذه المروحة الهائلة؟ كنتِ بعيدةً مثل الآن.

حريقٌ في الغابة! يشتعل في صلبانٍ زرق.
يشتعلُ، يلتهبُ، يتوهّج كشَجَرٍ من نُور.
يتقصَّف، ينهار. حريقٌ. حريق.
وروحي ترقص جريحاً من شَرَر النار.
مَن الذي ينادي؟ أيّ صمتٍ يضجّ بالأصداء؟
ساعةُ الحنين، ساعةُ الفرحِ، ساعةُ الوحدة،
ساعتي أنا بينها جميعاً!
بوقٌ تنفخ فيه الريح وهي تغنّي.
شغفٌ جارفٌ بالبكاء منعقدٌ إلى جسدي.
يزعزع كلّ الجذور،
اجتياحٌ لكلّ الأمواج!
وروحي تدورُ، فرِحةً، حزينة، بلا نهاية.

متفكّراً، أدفن مصابيحَ في الوحدة العميقة!
مَنْ أنت، مَنْ تكونينِ؟

١٨ ـ هنا أُحبُّكِ...

هنا أُحبُّك.
بين أشجارَ الصنوبر القاتمة تتسرّب الرياح.
يتألّق القمر فوق المياه التائهة.
تمضي أيامٌ متشابهة مُتوالية.

يتبعثر الضباب في أشكالٍ راقصة.
نورس فضّي يتدلّى من الغروب.
أوْ هوَ شراع. نجومٌ عالية، عالية.
أو صليبٌ أسود لِمركب.
وأنا وحيد.
أصحو أحياناً مع الفجر، وروحي مشبَعة بالنّدى.
ومن البعيد يصدح البحر، ويرجع الصدى.
إنه مرفأ.
هنا أحبُّكِ.

هنا أحبُّك وعبثاً يحجبك الأُفق.
ما زلت أحِبك بين هذه الأشياء الباردة.
تذهب قبلاتي في المراكب الثقيلة،

التي تعبر البحر إلى حيث لا تصل.

أراني منسيّاً مثل هذه المراسي القديمة.
وأكثر حزناً هي الأرصفة عندما يحلّ المساء.
تتعب حياتي الجائعة من غير جدوى.
أُحبُّ ما ليس عندي. كم أنت بعيدة.
سَأَمي يصارع الشفق الذي يأتي بطيئاً.
لكنَّ الليل يصل ويبدأ يغنّي لي.
والقمر يطوف بإطلالة الحلم.

تتأملني النجوم الكبيرة بعينيك.
ومثلما أحبُّك، تودّ أشجار الصنوبر في الريح،
أن تغني اسمكِ مع أوراقها الرقيقة.

١٩ ـ أيتها الصبيّة السمراء والرشيقة ..

أيتها الصبيّة السمراء والرشيقة،
الشمس التي تُشكّل الفاكهة، وتُنضج القمح،
كوَّنت جسدك الفرحِ، وعينيك البرّاقتين،
وفمَك الذي له ابتسامةُ الماء.

شمسٌ سوداء شرهة تلتفّ في خيوطِ
شعرِك الطويل الأسود،
عندما تبسطين ذراعيك.
تلعبين مع الشمس مثلما تلعبين مع مصبّ نهر
وتترك لك في عينيك غديرين داكنين.

أيتها الصبيّة السمراء والرشيقة،
لاشيء يقرّبني منك.
كل شيء يبعدني عنك، وعن منتصف النهار.
أنت هذيانُ النحلة الفَتية،
نشوَةُ الموجة، قوّةُ السنبلة.
مع كلِّ هذا، يبحثُ عنك قلبي المكفهرّ،
وأُحبُّ جسدَك الفرحَ، وَصوتَك المنسرحَ والرقيق.

فراشةٌ سمراء حلوةٌ ومشرقة
مثل حقول القمح والشمس،
مثل الماء وشقائق النعمان.

٢٠ ـ أستطيع أن أكتب الأشعار

أستطيع أن أكتب الأشعار الأكثر حزناً هذه الليلة.

أكتب، مثلاً: "الليلة ملأى بالنجوم،
وترتعش الكواكب، زرقاً، من البعيد".

رياح الليل تدوّم في السماء وتغنّي.

أستطيع أن أكتب الأشعار الأكثر حزناً هذه الليلة.
أحببتها، وأحياناً هي أيضاً أحبّتني.

في ليالٍ مثل هذه أخذتها بين ذراعيّ.
قبّلتها مرّات كثيرة تحت السماء اللامتناهية.
أحبّتني، وأحياناً أنا أيضاً أحببتها.
كيف لا أحب عينيها الواسعتين العميقتين.

أستطيع أن أكتب الأشعار الأكثر حزناً هذه الليلة.
أن أفكر بأنّها ليست لي. أن أشعر بأنّي فقدتها.

أنْ أصغي إلى امتداد الليل، والأكثر امتداداً مع غيابها.
والشعر يسقط على الروح كما الندى على العشب.

ماذا يهم أنّ حبّيَ لم يقدر على الحفاظ عليها.
الليلة ملأى بالنجوم وهي ليست معي.

هذا هو كلُ شيء. من البعيد أحدٌ يغنّي. من البعيد.
روحي ليست راضيةً بأنّي أضعتُها.

وكما لأُقرّبها مني تبحث عنها نظراتي.
قلبي يبحث عنها، وهي ليست معي.

في الليلة نفسها التي تبيَضُ فيها الأشجار نفسها،
نحن، اللذَيْن كنّا آنذاك، لم نعد كما كُنّا.
لم أعُدْ أُحبها، صحيحٌ، لكنْ كمْ أحببتها.
كان صوتي يبحث عن الريح كي يلامس سمعَها.
ستكون لآخَر. لآخَر. مثلما كانت من قبْل لقبلاتي.
صوتها، جسدها المضيء. عيناها اللا نهائيتان.
لم أعُد أُحبها، صحيح، لكنْ ربّما أحبها.
كم هو قصيرٌ الحب، وكم هو طويلٌ النسيان.

لأنّي في ليالٍ مثل هذه أخذتها بين ذراعيّ،
روحي ليست راضيةً بأنّي أضعتُها.

ولو أن هذا هو الألم الأخير الذي تُلحقه بي،
وهذه هي آخر الأشعار التي أكتبها لها.

أغنيةٌ يائسة

يلحّ تذكُّرك في الليلة التي أنا فيها .
يَمزج النهرُ بالبحر نواحه العنيد .

مهجورٌ مثل الأرصفة وقت السَحَر .
إنها ساعة الرحيل، أيها المهجور!

تُمطر فوق قلبي تويجاتٌ باردة .
يا مثوىً للحطام، يا كهفاً مفترساً للغرقى!

تتراكمُ فيكِ الحروب والأجنحة المحلّقة .
ومنكِ تنهض بأجنحتها عصافيرُ الغناء .
فيكِ غَرِقَ كلُّ شيء، مثل البعد .
مثل البحر، مثل الزمن . فيكِ غَرِقَ كل شيء!
كانت الساعة الفرِحة للمغامرة وللقبلة .
ساعة الذهول التي تتَّقد مثل منارة .
شوْقُ ربّان، هياج غوّاص أعمى،
نشوة حب غامضة، فيكِ غرِقَ كل شيء!

في طفولة الضباب روحي مجنَّحة وجريح.
مستكشفٌ ضائع، فيكِ غرِقَ كل شيء!

طوَّقكِ الألم، تشبّثت بكِ الرغبة،
هوى بكِ الحزن، فيكِ غرِقَ كل شيء!

أبعدتُ سور الظل،
ومضيتُ متجاوزاً حدود الرغبة والفعل.
آه أيها الجسد، يا جسداً لي، يا امرأةً أحببتُها وفقدتُها،
في هذه الساعة النّدية، أتذكّرك وأغنّي لك.

مثل كأسٍ امتلأتِ حناناً لا ينتهي،
والنسيانُ الذي لا ينتهي حطَّمكِ مثلَ كأس.
كانت العزلة السوداء، السوداء، للجُزُر،
وهناك، يا امرأة الحب، ضمَّني ذراعاكِ.

كان العطش والجوع، وكنتِ أنتِ الفاكهة.
كان الأسى والدمار، وكنتِ أنتِ المعجزة.
آه أيتها المرأة، لست أدري كيف استطعتِ احتوائي
في أرض روحكِ، وبين ذراعيكِ!
رغبتي فيكِ كانت الأكثرَ هولاً وقصَراً،
الأكثرَ اضطراباً ونشوةً، الأكثر توتُّراً وشَرَهاً.

مقابر القُبَل، ما تزالُ هناك نارٌ في قبورِك،
وما تزال العناقيد متّقدة تنقرها العصافير.

آه أيها الفم المدمّى بأسناني، أيها الجسد الذي غمَرَتْه القُبل،
أيتها الأسنان الجائعة، أيها الجسدان المضفوران.
أيها الوصال المجنون بالهمَّة والأمل
الذي فيه ننصهر وفيه نصل إلى اليأس.
والحنانُ، الرقيقُ كالماء والدقيق.
والكلمة التي لم تكد تصل إلى الشفاه.

هذا كان مصيري وفيه سافر اشتياقي،
وفيه سقط اشتياقي، فيكِ غرقَ كل شيء!
آه، يا مثوى الحطام، فيكِ سقط كل شيء،
أيُّ ألمٍ لمْ تكابديه، أية أمواجٍ لم تُغرِقْكِ!

من ألمٍ إلى ألمٍ توهّجتِ وغنَّيْتِ.
منتصبة مثل بحّار يعتلي مقدَّمة سفينة.

كمْ أزهرتِ في الأغنيات، كمْ حطَّمتِ في التيارات.
آه يا مثوى الحطام، بئرٌ مفتوحة ومرّة.
غوّاصٌ شاحبٌ أعمى، رامٍ عاثر،
مستكشفٌ ضائع، فيكِ غرقَ كلُّ شيءٍ!

إنها ساعة الرحيل، الساعة القاسية والباردة
التي يُخضِعها الليلُ لكلّ المواعيد.

حزام البحر المصطخب، يُطوِّق الشاطئ.

تبزغ نجومٌ باردة، تهاجر طيورٌ سود.

مهجورٌ كالأرصفة وقت السحَر.
وحده الظل المرتعش يتلوّى بين يديّ.

آه أبعد من كلّ شيء. آه أبعد من كلّ شيء.

إنها ساعة الرحيل. أيها المهجور!

المحتوى

الكتب الصادرة

اسم الكتاب	المؤلف ــــ المترجم
١ ـ الروضة الغناء في دمشق الفيحاء	نعمان أفندي قساطلي
٢ ـ دستوفسكي / نقد ودراسة	استيفان زفايغ / فريد أنطونيوس
٣ـ من الأندلس إلى أمريكا/الموشحات الأندلسية في الشعر الغنائي الغربي	د . عبد النبي اصطيف
٤ ـ جمال الدين الأفغاني ـ ذكريات وأحاديث	عبد القادر المغربي
٥ ـ في ظلال الأندلس ـ محاضرات	سلمى الحفار الكزبري
٦ ـ من الإسكندرونه إلى الإسكندرية	وليد إخلاصي
٧ ـ طرائق تعليم اللغة للأطفال	د .محمود أحمد السيد
٨ ـ دمشق التي عايشتها	يوسف سامي اليوسف

٩ ـ دمشق في عيون الشعر العربي الحديث	جان ألكسان
١٠ ـ من أفلاطون إلى ابن سينا	جميل صليبا
١١ ـ ضد إسرائيل	بيير ديمرون / حسيب كيالي
١٢ـ الشعر والتصوف	وفيق سليطين
١٣ ـ ابن عنين الأنصاري	د . أحمد دهمان
١٤ ـ مختارات شعرية	أمل جراح
١٥ ـ القمة وقضايا الأمة	د . رياض نعسان آغا
١٦ ـ عروبة بيت المقدس	د . اسحق موسى الحسيني
١٧ ـ لوركا ـ مختارات شعرية	ترجمة: مروان حداد
١٨ ـ القدس ذاكرة فنية عربية	محمد منصور

١٩ ـ وهج روح	ريم عبد الغني
٢٠ ـ بين السياسة والفنون	د. رياض نعسان آغا
٢١ ـ حول فراش الأمير	علي حسني نجار
٢٢ ـ أ بو القاسم الشابي	د. سحر عمران
٢٣ ـ كلمات مسافرة	اعتدال رافع
٢٤ ـ أعلام وأعمال	د. عبد الكريم الأشتر
٢٥ ـ البيئة والإنسان تفاضل أم تكامل	فاضل عباس